ASJP Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:07، العدد:02 (2023)، ص402-415

محمد عبد الكريم البلبالي (ت1955م) وإسهاماته العلمية والأدبية خلال فترة الاحتلال الفرنسي

Mohammed Abdel Karim Al-balbali (died in 1955) and his Scientific and Literary Contributions During the French Occupation

كريمة مقدم

جامعة أدرار (الجزائر)

mek.karima27@univ-adrar.edu.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/10/07
تاريخ القبول:
2023/11/16

الكلمات المفتاحية:
- ✓ توات
- ✓ السياسة الفرنسية
- ✓ البلبالي
- ✓ الحركة العلمية

الملخص:

خلال فترة الاحتلال الفرنسي لمنطقة توات (1900–1962) برز مجموعة من الأعلام أعادوا بعث الحركة الفكرية والعلمية والأدبية في المنطقة وتصدوا للمخططات الفرنسية، منهم الفقيه الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي (ت1955م) العالم والمصلح والأديب الذي عرف بالقلم السيال لغزارة إنتاجه الأدبي، حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية التعريف به وبدوره في العلمي والإصلاحي وببعض آثاره التي خلفها، والكشف من خلالها عن موافقه من قضايا المجتمع بما في ذلك قضية الوجود الفرنسي وتصفيته.

Article info

Received:
07/10/2023
Accepted:
16/11/2023

Key words:
- ✓ Touat
- ✓ French policy
- ✓ Al-balbali
- ✓ Scientific Movement

Abstract:

During the French occupation of the region touat (1900-1962), a group of prominent figures emerged, reviving intellectual, scientific, and literary movements while resisting French plans. Among them was the Islamic jurisprudent Sheikh Mohammed Abdel Karim Al-balbali (died in 1955), a scientist, reformer, and writer called the flowing pen for the flow of his literary works. We tried through this research paper to introduce him and shed light on his role in the scientific and reformist fields, exploring some of his lasting impacts and unveiling his position on societal issues, including the French presence and its resolution.

مقدمة

شكلت منطقة توات حاضرة علمية في بيئة صحراوية يقصدها الطلبة من جهات مختلفة ويستوطنها العلماء رغم ظروفها الطبيعية الصعبة، فبرزت بها مراكز علمية عديدة أنجبت أعلام كان لهم الدور في إثراء الحياة الثقافية في مجالات مختلفة، وعندما حل الاحتلال بالمنطقة حمل علماؤها على عاتقهم مسؤولية الحفاظ على الإرث الثقافي للمنطقة وإعادة بعثه ومجابهة المخططات الفرنسية، منهم العلامة الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي الذي شهد له معاصروه من العلماء بتميزه العلمي والأدبي كما عرف بالقلم السيال، تحاول هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على مسيرته العلمية والأدبية ودوره في عملية الإصلاح، ولمعالجة الموضوع طرحنا الإشكالية التالية: **ما الجهود التي قام بها الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي في المجال العلمي والإصلاحي؟ وما أهم أعماله الأدبية التي أبدع وتميز فيها؟**

ولمعالجة الإشكالية اخترنا المنهج التاريخي الوصفي لإبراز ما يتعلق بحياته وأعماله.

1. التعريف بالشيخ محمد عبد الكريم البلبالي ونشاطه التعليمي والإصلاحي

1.1. الواقع الثقافي والعلمي في توات إبان فترة الاحتلال الفرنسي

يقع إقليم توات في الجزء الجنوبي الغربي من الصحراء الجزائرية، ومع مطلع القرن العشرين تمكن الاحتلال الفرنسي من السيطرة على توات في إطار مشروعه التوسعي في كامل التراب الوطني باحتلال الصحراء الجزائرية، لتحقيق أهداف عسكرية وسياسية واقتصادية خاصة وأن توات تمثل معبرا هاما لتجارة القوافل وحلقة وصل بين تجارة الشمال وإفريقيا جنوب الصحراء.

فباشرت فرنسا استعداداتها لاحتلال المنطقة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بتكثيف بعثاتها الاستكشافية آخرها كانت بعثة فلامون (G.B.Flamend) نوفمبر 1899 كانت مهمتها علمية استكشافية لكنها تحولت إلى حملة عسكرية مهدت الطريق لاحتلال المنطقة، بدأت عملية التوسع نهاية شهر ديسمبر 1899م تمكنت القوات الفرنسية من اخضاع تيدكلت بعد القضاء على المقاومة الشعبية كمعركة الدغامشة يوم 5 جانفي 1900م، ومعركة إينغر في 19 مارس 1900م، ثم شرعت القوات الفرنسية في اخضاع منطقة قورارة ثم توات التي دخلت القوات الفرنسية عاصمتها تيمي في يوم 10 فيفري 1901م، وقد أخضعت منطقة توات كغيرها من مناطق الجنوب للحكم العسكري في إطار عملية تنظيم مناطق الجنوب (مياسي، 1996، الصفحات 105-116).

نتج عن السيطرة الاستعمارية تدهور في المجال الاقتصادي، حيث تراجع نشاط تجارة القوافل وتضرر معه قطاع الصناعة والحرف، كما سجل الإنتاج الزراعي تراجع في فترات مختلفة نتيجة الكوارث الطبيعية التي كانت تصيب المنطقة كالجفاف والجراد، ورغم ذلك اشتطت الإدارة الفرنسية في فرض الضرائب المتنوعة على السكان رغم قلة مداخلهم، كل ذلك أسهم في تردي الوضع المعيشي وازدياد حالات البؤس والفقر (بابا، 2018-2019، صفحة 128).

أما من الناحية الثقافية فقد دخلت المنطقة مرحلة من الجمود مع بداية القرن 20م، وذلك نتيجة للسياسة الثقافية التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية الهادفة إلى محاربة الثقافة المحلية للشعوب المستعمرة، واعتمدت في تنفيذ مخططها على وسائل وأساليب عديدة، منها محاربة التعليم ومحاولة تجفيف كل منابع الثقافة، حيث أعلنت الحرب على المدارس الفقهية الكبرى والزوايا، هذه المؤسسات العلمية التي مثلت المنبع والمصدر الأساسي للثقافة العربية الإسلامية، والتي أدرك المحتل حتى قبل تمكنه من إخضاع المنطقة دورها وأهميتها في المنطقة ومكانة علمائها، وأثناء عملية التوغل قاد شيوخ الزوايا والعلماء الحرب على الجيوش الفرنسية وحاولوا منع توسعها في المنطقة، كما فعل الشيخ الحاج المهدي باجودة شيخ الطريقة السنوسية في عين صالح والذي لقي مصرعه هو وأخوه بوعمامة في معركة إقسطن يوم1899/12/28م، ومولاي عبد الله بن مولاي العباس الرقاني الذي قاد معركة الدغامشة يوم 1900/1/5م، والذي سقط فيها شهيدا مع جمع من المجاهدين، هذا الموقف الذي اتخذه شيوخ الزوايا ضد المحتل جعله يستهدفها مباشرة بتشديد الخناق عليها من خلال الحراسة والمراقبة ومحاولة التضييق على نشاطها بوضع القيود بهدف إضعاف دورها الثقافي وتأثيرها الاجتماعي، وفي المقابل شجع على قيام زوايا موالية له لتكرس ثقافة الخضوع والاستسلام. (جعفري، 2008، صفحة 18).

كما كان الهدف من وراء محاربة المؤسسات الدينية والتعليمية زعزعة مكانة الدين الإسلامي واللغة العربية في نفوس الشعب الجزائري لتمهيد الطريق لنشر المسيحية، ولتدعيم البرنامج التبشيري فقط غطت مناطق الجنوب في الثلاثينات من القرن 20م بأكثر من سبعة عشر مركزا للتبشير وبما يقارب من ثمانين راهبا وراهبة، واستغلت المؤسسات التعليمية والصحية والتكوينية والخيرية للتغلغل في أوساط الشعب ومحاولة استمالته، كما شجعت على انتشار المفاسد كزراعة الكيف والعفيون واستهلاك الكحول ولعب القمار (قلوم، 1986، الصفحات 7-9).

وفي الوقت الذي ضيقت إدارة الاحتلال على المدارس والزوايا حاولت أن تدفع بأبناء المنطقة للدخول إلى مدارسها والتي كانت محدودة العدد، وأول مدرسة افتتحتها كانت خاصة بالذكور في منطقة تيميمون سنة 1908م تكونت من قسمين فقط، وفي العقد الخامس والسادس من القرن العشرين افتتحت المزيد من المدارس منها مدرسة بمدينة أدرار سنة1956م وأخرى في منطقة تسابيت ورقان، غير أن نسبة الإقبال على المدارس الفرنسية كانت قليلة لأن السكان قاطعوا التعليم الفرنسي وامتنعوا عن إرسال ابنائهم إلى هذه المدارس لتخوفهم على دينهم وثقافتهم كما كان للوضع الاجتماعي السيء وظروف المعيشة الصعبة دورا في ذلك حيث فضَّل الآباء ارسال أبنائهم للعمل في البساتين ليساهموا في تحسين مداخيل الأسرة بدل إرسالهم إلى المدارس، كما أن الإدارة الفرنسية لم يكن هدفها تعميم التعليم ونشر الثقافة وإنما تكوين عدد من الأفراد يجيدون القراءة والكتابة بالفرنسية ليكونوا واسطة بينها وبين أفراد المجتمع ولتكون منهم موظفين إداريين لذلك كان عدد المقاعد في المدارس محدودا (بلعروسي، 2021-2022، الصفحات 343-346).

كما أقدمت إدارة الاحتلال على الإتلاف العمدي وحرق الكثير من المخطوطات التي حوتها الخزائن خلال عملية الغزو على يد قواتها العسكرية مثلما حدث في زاوية كنته، كما تعرضت أخرى للنهب على يد رحالة ومكتشفين وضباط فرنسيين تحت حماية وتأييد من الإدارة الفرنسية لاسيما على يد الضابط الفرنسي A.G.P Martin الذي جمع عدد من المخطوطات التواتية من مناطق مختلفة من الإقليم ونقلها إلى فرنسا، (بقادر، 2013، صفحة 237) خاصة ما تعلق بالمخطوطات ذات الصلة بتاريخ المنطقة، وقد أكد ذلك العالم مولاي أحمد الطاهري بقوله: "**وقد بحثت عن هذا الفن في الأماكن والخزانات التي أظن أنه يوجد فيها شيء أعتمد عليه في هذا المعنى فلم أجد شيئا يذكر، وقد قيل لي إن بعض العلماء من أهل توات كان قد ألف كتابا سماه بالبسيط أو الوسيط في تاريخ القصر المسمى تمنطيط ولم أقف عليه، لأن الحكومة الفرنسية عند احتلالها لتوات جمعت كل نسخ ذلك الكتاب واحتفظت بها، وحذرت الناس من تعاطيها وإظهارها والاشتغال بها على ما حكي لي وبلغني**" (الطاهري، 2012، الصفحات 52-53).

2.1. مظاهر الانبعاث الثقافي في عهد الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي

هذه الممارسات التي قام بها المحتل أدخلت المنطقة في حالة عزلة صاحبها تراجع ثقافي وفكري نتيجة توقف عدد من المدارس والزوايا عن أداء أنشطتها الفكرية والعلمية في المقابل انتشرت البدع والخرافات في أوساط المجتمع (جعفري، 2008، صفحة 18)، إلا أن النجاح الذي حققته السياسة الفرنسية في بداية الاحتلال لم يكن ليستمر طويلا، فقد شهدت المنطقة حالة من التجديد وانبعاث للحركة العلمية والثقافية من جديد بدأت ملامحها تتجلى أواخر العقد الثاني من القرن لتبلغ أوجها في العقدين الرابع والخامس منه، ويعود الفضل في هذا الانبعاث إلى اهتمام أهل توات بالعلم وحرصهم على تلقينه لأبنائهم خاصة العلوم الشرعية واللغوية، ويتجلى ذلك في مسارعتهم إلى بناء المدارس، ومن أمثلة ذلك مساهمة أولاد سي حمو بلحاج في بناء مدرسة الشيخ مولاي أحمد الطاهري في سالي (الطاهري، 2012، الصفحات 158-159)، وتخصيص أحباس للتكفل بنفقة الطلبة والمعلمين، كما فعلت عائشة بنت سيد محمد التي حبست جنان على مدرسة بلدتها ابنلو (سجلات الأحباس والتركات، (1947-1950)، ع273، 1950/9/5)، ويظهر حرصهم واهتمامهم بأهل العلم وطلبته أيضا في تكريمهم لحافظ كتاب الله وتخصيصه بصدقات من طرف الوالدين أو أحدهما أو أحد الأقارب، تكون هذه الصدقة للحافظ دون غيره من الأبناء، والأمثلة عن ذلك كثيرة وردت في سجلات الأحباس والتركات الخاصة بالمحكمة الشرعية منها الصدقة التي تصدق بها أحمد بن عبد القادر البوحامدي على ابنه محمد نظير حفظه كتاب الله تمثلت في نصف ثمنين من الماء واحد من فقارة يوسف أغزيز الثاني من فقارة تقرفتن (سجلات الأحباس والتركات، (1951-1955)، ع115، 1953/2/27).

ومن العوامل المساعدة على بعث الحركة العلمية والثقافية في المنطقة بروز علماء قادوا حركة الإصلاح والإرشاد والدعوة إلى محاربة الاستعمار، بعد أن قضوا زمن من حياتهم في طلب العلم وتحصيله في سواء على يد مشايخ المنطقة أو خارجها، ثم عملوا على تلقين ما تعلموه لأبناء المنطقة من خلال المدارس فقهية كبرى

التي أسسوها منها:

- **مدرسة الشيخ أحمد ديدي (ت 1370هـ/1951م):** بعد نيله الإجازة من طرف علماء مدرسة كوسام عاد الشيخ إلى مسقط رأسه فكان له مجلس علم ثم افتتح مدرسته الداخلية سنة 1928م، التي استقطبت أعداد كبيرة من الطلبة من أوائلهم الشيخ الحاج أحمد نومناس والحاج عبد الكريم التتلاني والشيخ محمد بلكبير والشيخ الحاج محمد العالم، فاهتم الشيخ بتلقين طلبته العلوم الشرعية واللغوية (بكري، 2005، الصفحات 185-199)، كما جعل من مدرسته مكان لتلقين الروح الوطنية خاصة والدعوة إلى الانخراط في صفوف الثورة التحريرية ودعمها ماديا ومعنويا، حيث كان للشيخ ومن بعده ابنه الشيخ عبد القادر(ت 2000م) الذي خلف والده على رأس المدرسة علاقات واتصالات مع مناضلي الحركة الوطنية الذين كانوا يترددون على المدرسة منذ 1948م (عيلة، 2015-2016، الصفحات 409-410).

- **المدرسة الطاهرية:** نسبة لمؤسسها مولاي أحمد الطاهري المغربي الذي خرج في رحلة لنشر العلم فحط الرحال في شنقيط ثم تمبكتو، ثم توات سنة 1363هـ/1944م (بلعالم، 2015، صفحة 375)، بالتحديد في منطقة سالي، وأسس مع أعيانها مدرسته القرآنية لمجابهة التجهيل والتنصير والمخططات الاستعمارية، ومن الأمور التي استنها الشيخ وساهمت في نشر العلم في توات هو تنظيم موكب علمي لتعميم النفع والاصلاح، يجوب قصور توات يعقد المجالس العلمية لتفقيه الناس وتعليمهم تعاليم دينهم (لمحرزي، 2019-2020، الصفحات 71-76)، وللشيخ مواقف مشرفة من السياسة الفرنسية ففي الوقت الذي حاولت الإدارة الفرنسية أن تستغله لإقناع شيوخ القصور بقبول مخططها الهادف إلى فصل الصحراء، كان الشيخ يقوم بعكس ذلك ويقنع شيوخ القصور بعدم التوقيع عليه، ولما علمت القوات الفرنسية بذلك قامت باعتقاله وتعذيبه ومراقبة المدرسة فما كان منه إلا التوجه إلى الحج الذي كان يعد له مسبقا فرارا من بطش العساكر، وبعدها عاد إلى مسقط رأسه للتدريس في مدرسة والده (الطاهري، 2012، الصفحات 93-99).

- **مدرسة الشيخ محمد بلكبير:** نسبة لمؤسسها الشيخ محمد بلكبير، بعد الرحلة التي قام بها الشيخ في نشر العلم حيث درس في منطقة المشرية، انتقل الشيخ إلى تيميمون وافتتح بها مدرسة قصدها الطلبة من كل أنحاء المنطقة وخارجها، ولكن المضايقات التي تعرض لها الشيخ من قبل الإدارة الاستعمارية اضطرته إلى العودة إلى مسقط رأسه سنة 1948 وبعد فترة قصيرة افتتح مدرسة بمدينة أدرار بمساعدة أعيانها سنة 1950 م كانت صرحا علميا وإصلاحيا ومنبرا للدعوة إلى الجهاد ومناصرة الثورة ومأوى للمجاهدين (غيتاوي، 2005، صفحة 50).

كما أنتج أدباء المنطقة والذين كان معظمهم فقهاء أعمال أدبية، إلا أن الكثير منها ضاع أثناء عمليات التوغل الفرنسي وبفعل سياسة النهب والتخريب التي تعرضت لها الخزائن، والوثائق التي سلمت من تلك الأعمال تبين أن الأدباء المعاصرين لهذه الفترة تركوا أعمال شعرية ونثرية، منها قصائد في المدح والرثاء والتوسل والغزل (بكري، 2005، صفحة 50)، ونصوص تعالج قضايا المجتمع وتدعو إلى إصلاحه، وأخرى

تمجد الأبطال وتعبر عن قومية الشاعر وحبه للوطن، منهم الشاعر الفقيه السيد حمزة بن مالك القبلاوي الذي نظم قصيدة تمجد مجاهدي انغر وكذلك فعل الشاعر سيد الحاج محمد عبد الرحمن بن محمد السكوتي، والشيخ سيد البكري بن عبد الرحمن (1339هـ) الذي كانت له أعمال نثرية وشعرية رثى فيها توات بعد وقوعها في يد الاحتلال الفرنسي (نيكلو، 2007، صفحة 6). ومن الأعلام شيخنا محمد بن عبد الكريم البلبالي محل الدراسة المعلم والفقيه والأديب.

2.1. الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي وجهوده في مجال التعليم والفتوى والإصلاح

1.2.1. الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي

محمد عبد الكريم بن الحاج محمد فتحاً بن القاضي السيد محمد عبد الكريم بن السيد محمد (المكنى عمي) بن السيد عبد المالك بن السيد عبد القادر بن السيد محمد فتحاً الذي ينتسب للعائلة البلبالية التي ذاع صيتها العلمي والفقهي في توات خصوصاً ما بين القرنين (12و14 الهجري)، ولد الشيخ سنة 1288هـ/ 1860م (مبدوبي، 2014، الصفحات 11-12)، نشأ الشيخ في أسرة ذات مكانة علمية واجتماعية فتح الله عليهم بسعة رزقه ورغد عيشه مما أثر ايجابا في نشأة الطفل والتفرغ لطلب العلم، وبدأ مشواره الدراسي في مسقط رأسه ثم انتقل إلى تمنطيط، فدرس فيها مدة قصيرة على يد الشيخ سيدي البكري بن سيد محمد العالم أحد أعلام المنطقة، أخذ عنه مبادئ العلوم الشرعية واللغوية، رحل بعدها إلى مدرسة كوسام سنة 1308هـ/ 1890م لمدرسة الشيخ عبد الله البلبالي بن أحمد الحبيب (ت 1329هـ)، فمكث فيها ثمان سنوات تكون في علوم شتى، إلى أن أجيز سنة 1316هـ/1898م من مشايخها السيد عبد الله البلبالي والشيخ القاضي مَحمد بن سيد أحمد البلبالي (سيدي عمر، 2002، صفحة 29).

2.2.1. النشاط التعليمي والاصلاحي للشيخ

فبعد تزوده من العلوم العالية المختلفة بمدرسة كوسام وإجازته من شيوخها عاد الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي إلى مسقط رأسه سنة 1316هـ/1898م، ليشتغل بمهنة التعليم، فأعاد فتح مدرسة جده سيدي محمد عبد الكريم (ت1286هـ/1869م) الوقفية المسماة (دار القراءة) التي أقامها قرب المسجد العتيق بقصر بني تامر، لاستقبال الطلبة الباحثين عن العلم من قصر بني تامر والقصور المجاورة.

وكانت المدرسة كأي مدرسة أو زاوية علم في توات تستقبل الطلبة الراغبين في مواصلة الدراسة بعد إتمام المرحلة الأولى من التعليم في الكتاتيب والتي تعرف في المنطقة بالمحضرة أو أقربيش والتي يتعلم فيها الطالب القراءة والكتابة ويحفظ القرآن وبعض المتون، بعد ذلك ينتقل الطالب إلى المرحلة الثانية فيلتحق بالمدرسة للتعمق في علوم مختلفة.

أما في المدارس أو الزوايا فيلقن الطالب مواد في علوم مختلفة، وكان الشيخ في مدرسته يلقن طلبته أصنافا من العلوم المختلفة أهمها:

- **علوم الفقه:** من خلال المتون والمؤلفات المصدرية كالمرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن

عاشر، ونظم الأخضري في السهو للعبقري، والرسالة لأبي زيد القيرواني، فمختصر خليل لخليل بن اسحاق المالكي.

- **لأحكام القضائية:** تم الاعتماد على متن العاصمية لأبي محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي.
- **قواعد اللغة:** مقدمة ابن آجرم في النحو وألفية بن مالك، لامية الأفعال لمحمد بن مالك.
- **الآداب العامة:** النصيحة الإلهية لسيدي أحمد بن محمد عطاء الله، والحكم العطائية لابن عطاء السكندري.
- **السيرة والشمائل:** البردة، الهمزية للإمام البصيري.
- **الحديث:** أهم كتب الحديث التي كانت تدرس في مدارس توات صحيح البخاري وصحيح مسلم وموطأ الإمام مالك وغيرها، إلا أن العناية بصحيح البخاري أكثر منها من غيره، وقراءة الحديث وتفسيره لم يكن يتصدر لها إلا من امتلك الكفاءة وذلك ما يؤكده الشيخ محمد باي بلعالم بقوله: "**ومن المعلوم أن هذه الكتب الحديثية لا يتصدى لقراءتها إلا من له كفاءة تؤهله لتدريس الحديث وشرح معانيه للطلبة**" (بلعالم، 2015، صفحة 299)، وكان الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي من أولئك الأكفاء الذين تصدروا لتدريسه وتفسيره سواء لطلبته داخل المدرسة أو من خلال الحلقات التي كان يعقدها في القصور المجاورة والتي يحضرها عامة الناس في شهر رمضان من كل سنة.
- **التفسير:** من المواد التي شرع في تدريسها في السنوات الأخيرة من حياته بناء على طلب بعض طلبته، فخصص لتفسير القرآن يوم الأربعاء من كل أسبوع، وكان يحضره مشايخ من قصور أخرى (مبدوبي، 2014، الصفحات 21-22).

وبفضل حرص الشيخ ونشاطه الدؤوب تخرَّج على يديه عدد كبير من الطلبة من قصر بني تامر والقصور المجاورة منهم: السيد البركة بن السيد الحاج عبد الله وأخيه السيد محمد المعروف بالطالب حماد، السيد محمد عبد المالك مبدوبي ومحمد بن سيد عبد العزيز، والسيد مولاي أحمد بن السيد كمولاي العربي وأخيه سيد محمد والسيد مولاي العربي بن السيد مولاي عبد المالك، ومولاي علي بن ديدي، والسيد محمد العياشي والحاج محمد بن المختار والحاج محمد عبد العزيز، السيد الحبيب بم محمد المكي بن عمراني وغيرهم، أسهم هؤلاء وغيرهم من الطلبة في الحياة العلمية والأدبية في ولاية أدرار إبان الاستعمار الفرنسي وبعد الاستقلال (مبدوبي، 2014، صفحة 26).

ونتيجة لتبحره في علوم الدين كان مقصد الناس في الأمور التي اشكلت عليهم في أمور دينهم فترك عدد كبير من الفتاوى، كان الشيخ ينوي جمعها لكن الموت اختطفه، فجمعها تلميذه محمد عبد العزيز المهداوي وقال عن ذلك: "**وأنه كان قد عزم على جمع نوازل فاختطفته يد المنية. ولا حول ولا قوة إلا بالله. لكن يسر الله وفتح الباب وجمعتها بعد وفاته. لحسن نيته وإخلاصه. ولما فاض علي من إمدادها (سميتها) ... تحفة اللبيب الحليم في أجوبة أبي مروان سيد محمد عبد الكريم**" (سيدي عمر، 2002، صفحة 29). نشر تلميذه فيما بعد هذه الفتاوى بعد أن أضاف في المؤلف بعض الفوائد أو أسئلة له ولبعض الأعلام، وهو الآن منشور

تحت عنوان: الجواهر اللئالي من فتاوى الشيخ سيدي عبد الكريم البلبالي تعالج مسائل فقهية مختلفة في الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة والصيام والنكاح والأحباس والبيوع وغيرها (البلبالي، 2003، الصفحات 7- 270). فلم تكن إجابات الشيخ نثرا بل أجاب على بعضها نظما أظهر فيها الشيخ براعته الأدبية وجمال أسلوبه الراقي خاصة في القصائد التي جاءت ردا على أسئلة وردت من أترابه من العلماء.

كما أدرك الشيخ أهمية إرشاد الناس في الأمور العقائدية والسلوكية، فكان من الذين انبروا لهذه المهمة في قصر بني تامر والقصور المجاورة من خلال حلقات الذكر التي كان يعقدها لعامة الناس وخاصتهم يصحح أمور عقيدتهم ويقوّم سلوكهم ويصفيه مما علق به من البدع والأوهام فكان ينتقل من قصر إلى آخر حاملا شعار الدين النصيحة (قصباوي، 2015-2016، الصفحات 27-28).

ولم تكن رسالة النصح يقدمها للسامع مباشرا بل كانت أحيانا في شكل مؤلفات يشرح فيها الظاهرة المراد التنبيه لها وتبيان حكمها الشرعي، كالرسائل التي ألفها في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، منها رسالة في أكل الحلال ووجوب اجتناب الربا الحرام، وهي رسالة موجهة لأهل الإسلام عامة، نبه فيها إلى أنواع الربا وما أحدث على عصره في منطقة توات من معاملات تعد شرعا من صور الربا، كاعتبار ما هو معياره الكيل بمعيار الوزن والموزون بمعيار الكيل ، وبيع النُقر الذي هو التمر أول الصلاح موزوناً، وقد دللها بنصوص الكتاب والسنة وأقوال علماء المالكية، وأشار إلى أن أرباب الحوانيت هم من ساهموا في انتشار هذه الداهية العظيمة لتوليهم بيع سلعهم من لم يعرف أحكام البيع والشراء فيجب تغيير هذه البدائع التي تؤدي إلى الفساد (البلبالي، 2003، الصفحات 224-230).

كما وظف الشيخ الشعر كوسيلة لتبليغ رسالته إلى الناس فألف في ذلك قصائد بأسلوب بسيط وألفاظ وتعابير خالية من السجع والتصوير ليتمكن العامة من فهمها وتناقلها، فكشفت بعضها السلوكات السلبية التي انتشرت في المجتمع ودعا من خلال هذه القصائد إلى تصحيحها، منها قصيدة جاءت في شكل نصيحة وجهها للتجار والباعة سنة 1353هـ من أوائل شهر رمضان، مرشداً لهم عما يجب أن يتوفر عليه المتعاطي للنشاط التجاري من العلم بأحكام البيع والشراء، مما يقول فيها:

الحمد لله العليم الباقي ... الممسك للخلق والأرزاق
وبعد خذ نفلا من الحذاق ... الشاربين العلم في السواق
يجب للجالس في الأسواق ... تعلم العلم على الإطلاق
من عالم محقق وراق ... مبر لكل علة وراق
ليعرف الصواب في النفاق ... فيتغذي من أطيب الأرزاق
مجتنبا للحلف والنفاق ... ليربح الخير من النفاق
عبد الكريم قد أتاكم راق ... بأفضل الدواء كالترياق

(مبدوبي، 2014، الصفحات 233-234)

2. منجزاته الأدبية والثقافية الأخرى

1.2. من أعماله الأدبية

رغم انشغال الشيخ بتأليف الرجال والنصح والإرشاد، إلا أن ذلك لم يمنعه من التأليف في مواضيع مختلفة، منها مجال الأدب فوظف الشعر في مجال الإفتاء والنصح والإرشاد كما أسلفنا سابقا، وترك الشيخ أعمال أدبية أخرى في شكل رسائل إخوانية وقصائد في أغراض شتى منها قصيدة نظمها سنة 1900م يصف فيها حالة التدهور الديني والاجتماعي في توات من انتشار الظلم والبغضاء وغياب الصدق والأمانة والتمسك بالدنيا والتنافس عليها بسبب السيطرة الفرنسية على الدين وأهله، يقول في مطلعها:

على هذا الزمان بكى فؤادي ... ومن عينيه انسكب الدماء
فقلت له على ما هذا البكاء ... فقد سهرت بنحبكم الثراء
فقال وكيف لا أبكي انتحابا ... وقد رحل الصديق والوفاء
تباعدت المروءة عن ذويها ... ودين الله عارضه الفناء
وأمة أحمد خربت قلوبا ... ودب البغض فيها والجفاء
وصار الحلم مأواه الهواء ... وما بقي الوقار والحياء
وأظلمت النفوس بما غشاها ... من الخبث الذي ولد الطغاء
فقد نزلت علينا من الإله ... عواصف من عوائدها الثراء
بما اكتسبت يد أهل المعاصي ... من الهفوات وانتظم البلاء

(سيدي عمر، 2002، صفحة 40)

ومن أعمال الشيخ قصائد يناجي فيها الله سبحانه وتعالى أن يكشف البلاء عن العباد، وهذه القصائد تكشف مدى تعلقه بالله سبحانه وتعالى، ومدى تفاعله مع قضايا المجتمع، وفي الوقت نفسه تعد مصادر غير مباشرة تؤرخ لأزمات عاشها المجتمع، منها وباء الجراد، ومن القصائد التي تركها في هذا المجال قصيدة توسل فيها إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وبالأنبياء والملائكة والصالحين لرفع وباء الجراد الذي هاجم قصور المنطقة، وقد وثق في القصيدة تاريخ الحدث مستعملا طريقة حساب الجمل بقوله: "**تاسع محرم... عام نسش**" أي سنة 1350هـ/1931م (البلبالي، قصيدة التوسل لرفع الجراد، 1931).

وتجددت الأزمة كما تشير قصيدة أخرى للشيخ سنة 1364هـ/1945-1944م (مبدوبي، 2014، صفحة 102)، وفي هذه السنة الأخيرة كان خطر الجراد أكبر حيث تزامن مع الغلاء الذي عانت منه الجزائر قاطبة جراء الحرب العالمية الثانية والسياسة الضريبية المجحفة في حق الشعب، ساهم ذلك في وقوع المجاعة، والتي دفعت إلى تغيير السلوكات الغذائية واضطرت البعض إلى الهجرة، ومن بقي لجأ إلى الاستدانة أو بيع جزء من الأملاك لتأمين لقمة العيش (مقدم و بابا، 2021، الصفحات 585-587).

ولم يكن الشيخ بعيدا ولا غافلا عن المسألة التي تؤرق الشعب الجزائري بأكمله وهي مسألة الوجود الفرنسي على أراضيه، وقد كان للشيخ مواقف سياسية ضد الاستعمار بدأها برفض التعامل مع المحتل عندما طلب منه تولي قضاء المحكمة الشرعية بعد سيطرته على المنطقة فرفض الشيخ ذلك، وبعد الحرب العالمية الثانية بالتحديد سنة 1367هـ/1948م نظم الشيخ قصيدة في أدب المقاومة بدأها بذكر الله سبحانه وتعالى والصلاة على نبيه المصطفى ﷺ وحيا أرض الجزائر وأثنى فيها على المقاومين خاصة مصالي الحاج زعيم الاتجاه الاستقلالي في الحركة الوطنية بقوله:

لاســـم الإلـــه قبـــل قـــول نصـــدرا ... علـى المصطفى طـه أصلـى لننصرا
ســـلام علـــى أرض الجزائـــر كـــالثرى ... ومن مهدوا الإسلام في سائر القرى
خصوصا مصالي الحـــاج ذا سيرة الغرا ... ومن مهدوا الإسلام في سائر القرا
كـــذاك الحفيظ حـــاطه منشئ الـــورا ... مـــن الشرك والشكوك والحيف والمرا

وفي نهاية القصيدة قال:

ألا فاعلـــموا أن الجـــهاد تقـــررا ... بأنـه فـرض يحـل كـل عـام بـلا امتـرا
على من على الإســـــــلام قد تأمرا ... بـــذا أمـــر المـــولى وجـــاء مســـطرا
فجـدوا أيـا الإخـوان فـي أجـر الأخـرا ... لأجـــــل دوامـــه الفطـــين تشـــمرا
فـــــهذه تجـارة كمسك سمت قدرا ... لهـا كـل عاقـل تـــــــراه تبـادرا

(مبدوبي، 2014، الصفحات 230-231)

هذه الأبيات الأخيرة التي بين فيها الشيخ حكم الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي وحث فيها الشعب على مناهضة المحتل وضرورة محاربته، تؤكد أن الشيخ لم يكن بعيدا عن القضايا السياسية، التي هي جزء من حركة الإصلاح الشامل حسب المؤرخ أبو القاسم سعد الله الذي يرى: "**أن الإصلاح بالمعنى الشامل قد يبدأ بالثقافة أو الدين أو المجتمع، ولكنه في نهاية الأمر يغطي كل مظاهر الحياة في المجتمع بما في ذلك السياسة، فالإسلام كما هو معروف دين ودولة**" (سعد الله، 1992، صفحة 88)، وذلك ما أدركه الشيخ ألا سبيل لإصلاح المجتمع ما لم يتخلص من الوجود الاستعماري ويستعيد حريته، كما تبين القصيدة تبني الشيخ لأفكار الحزب الاستقلالي الداعية إلى التعجيل بالقيام بالعمل المسلح خاصة بعد المجازر التي ارتكبها المحتل ضد الشعب الجزائر في نهاية الحرب العالمية الثانية، رغم أنه لا يوجد ما يؤكد وجود اتصال بين الشيخ ومناضلي هذا الحزب.

ومما تركه الشيخ مجموعة كبيرة من القصائد في المدح والرثاء والتوسل، أكثرها تلك التي نظمها في مدح المصطفى ﷺ، منها قصيدة تجاوزت مئة والعشرون بيتا، وقد كتبت القصائد بالشعر بالفصيح والملحون، منها قصيدة لامية ألفها عام 1319هـ/1901م أراد بها كما قال خدمة النبي ﷺ

القصيدة من عشرين بيتا يقول في مطلعها:

صل يارب وسلم على من	جاءنا بالهدى وماح الضلال
النبي الأمي أكرم خلق	خصه ربه بخير الجمال
شرعه ناسخ لكل الشرائع	دينه قويم كثير الخصال
مرحبا مرحبا به يا ساداتي	فعليكم به في كل الأحوال
حبه مفروض عليكم جميعا	لتفوزوا به في كل الأهوال

(مبدوبي، 2014، صفحة 129)

وله في مدح المصطفى قصيدة بالشعر الملحون يقول فيها:

بسم المولى أبديت في ذي الإنشاد وألف أصلى أعلى الهادي

سيد الأسيادي اشهد بي أنحبكم

بسم المولى على صاحب الخيرات	أيا سيد السدات باغي نرى أمقامكم
النبي محمد شفيع العباد	في يوم التنادي أعطف أعلى أدمكم
ولد أمحمد هذا محمد عبد الكريم زاد	جاب القصيد واسلاف ما اخفوكم
باغي لافاد يطلب فيكم زاد الزياد	أنتم أهل الإفاد الخير اجميع عندكم
أندهت الصالحين أهل العباد	إنعرون كاملين حتى الفراد

(مبدوبي، 2014، صفحة **165**)

2.2. منجزاته الثقافية الأخرى ومكانته العلمية

2.2. 1. من مخلفاته الثقافية

ومن الأعمال الجليلة التي قام بها الشيخ خدمة للعلم وأهله ألا وهي تحبيسه لمكتبته الخاصة التي ورثها عن جده محمد عبد الكريم بن عبد المالك البلبالي (ت1278هـ/1861م)، هذه المكتبة التي يعود تأسيسها إلى سنة 1245هـ/1829م، ويعد الشيخ محمد عبد الكريم الحفيد هو المجدد للمكتبة، حيث أعاد لها الاعتبار بعد عودته من كوسام، فعمل على استعادة الكتب التي كانت معارة هنا وهناك، ودعمها بما ألفه من أعمال كالفتاوى والأعمال الأدبية وبما اشتراه من كتب مخطوطة ومطبوعة، وقبل وفاته حبسها، وجعلها في سبيل الله، وأوصى بأن يتولى أمرها القارئ من أبنائه وأحفاده بحفظها وصيانتها، (مبدوبي، 2014، صفحة 21) فتشير وثيقة جرد المكتبة أنها كانت تضم مؤلفات في مجالات علمية مختلفة، كالتفسير والحديث والفقه

والنوازل والمنطق والحساب والتاريخ، منها على سبيل الذكر القرآن كتفسير الجلالين لجلال الدين السيوطي، وتفسير علاء الدين الخازن، تفسير ابن عطية الاندلسي، وفي الحديث شرح البخاري وكتاب الموطأ، وفي الفقه المدونة للإمام مالك، شرح ابن ناجي والتوضيح لابن هشام، والنوازل كنوازل الغنية ونوازل البرزلي وابن هلال، وكتب في مجالات أخرى ككتاب دليل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي ﷺ المختار لمحمد بن سليمان الجزولي، وشرح السنوسية الكبرى، وكتاب المصباح المنير للفيومي والمزهر في علوم اللغة لجلال الدين السيوطي، وكتاب وفيات الأعيان ابن خلكان، وفي الحساب كتاب القلصادي وغيرها (البلبالي، وثيقة جرد خزانة محمد عبد الكريم البلبالي، 1315هـ).

2.2. 2. مكانته ووفاته

تبرز مكانة الشيخ الفقهية والأدبية من خلال أعماله التي أشرنا إليها ومن خلال شهادة اترابه من العلماء حيث وصفه ابن عمه الحاج أبي علام البلبالي في مطلع قصيدة أرسلها له يستفسر عن مسألة لغوية أشكلت عليه في لفظ للبوصيري قائلا:

يا عالم الأعراب ما قول غريب أتى به الشيخ البصيري عجيب
بتفضيل المشبه الذي بدا عن المشبه به معتمد

فأجابه الشيخ محمد عبد الكريم بقصيدة منها الأبيات التالية:

فقول من ذكرت ياسماء ما طاولتها رفعة سماء
وقوله إنه شمس فضل وغيره كواكب أصل

ووصفه الشيخ مولاي أحمد الطاهري في رسالة بعثها له أشاد في مطلعها بالشيخ محمد عبد الكريم ومكانته العلمية والأدبية فوصفه بالقمر الباهر والشاعر الناثر وقال عنه أيضا: "**الفقيه المحقق الصوفي المدقق، ذو الذهن الثاقب، والفكر الصائب، نادرة الدهر ويتيمة عقد الصدر، الفقيه المشارك، الورع الناسك المرصع بأنوار علومه شتى ظلام الليل الحالك**" (سيدي عمر، 2002، صفحة 36،38).

وقال عنه تلميذه محمد عبد العزيز المهداوي بأنه: "**هو كالشمس في رابعة لا يحتاج فضله إلى الإيضاح، له في كل فن من فنون الفقه فتاوى متعددة نثرا وشعرا، وفي النحو والفرائض وغير ذلك**" (سيدي عمر، 2002، صفحة 29).

بعد مسيرة علمية حافلة بالنشاط والانجازات من تدريس وافتاء ونصح وتأليف، انتقل الشيخ إلى جوار ربه سنة 1375هـ/1955م (قصباوي، 2015-2016، صفحة 42).

خاتمة

من خلال هذا الموضوع الذي تناولنا من فيه إسهامات الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي في الحياة العلمية والأدبية من خلال إعطاء لمحة موجزة عن الوضع الثقافي في المنطقة خلال فترة الاحتلال الفرنسي الذي انبعث بعد حالة من الركود خلال السنوات الأولى للاحتلال كما تتبعنا فيه مسيرة الشيخ في طلب العلم ونشاطاته المختلفة في خدمة المجتمع وانجازاته العلمية خاصة منها الدينية والأدبية ووقفنا على أمثلة منها خلصنا إلى النتائج التالية:

أن أهم منابع العلم والثقافة في توات كانت المدارس الفقهية الكبرى، وأن علماءها هم الذين تصدوا للسياسة الفرنسية التي حاولت أن تزعزع مكانة الدين الإسلامي واللغة العربية في المنطقة، وأن الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي كان من أولئك الأعلام الذين أسهمت البيئة الأسرية والعلمية التي نشأ بها في تكوين شخصيته وإعداده للمشاركة في عملية النضال ضد الجهل والفساد والسياسة الفرنسية من خلال التعليم والإفتاء والإرشاد، أن الانشغال بالتعليم والإفتاء لم يمنعه من المساهمة في اثراء الحياة الأدبية، حيث كانت مؤلفاته خاصة الشعرية وسيلة للتعبير عن مشاعره وأفكاره وجعل منها وسيلة لمعالجة قضايا مجتمعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ووسيلة للدعوة لجهاد المحتل الفرنسي.

قائمة المراجع

- البلبالي محمد عبد الكريم، **قصيدة في التوسل لرفع الجراد سنة 1350هـ**، خزانة مدرسة دار القراءة، بني تامر، أدرار، الجزائر، (مخطوط).
- البلبالي محمد عبد الكريم، **وثيقة جرد كتب الخزانة محمد عبد الكريم البلبالي**، خزانة مدرسة دار القراءة، بني تامر، أدرار، الجزائر، (مخطوط).
- سجلات الأحباس والتركات، (1955-1951)، ع 115، تاريخ 1953/2/27، (مخطوط).
- سجلات الأحباس والتركات، (19501947)، ع 273، 1950/9/5، (مخطوط).
- إبراهيم مياسي، (1996)، **التوسع الفرنسي في الجنوب الغربي 1881-1912**، الجزائر، منشورات متحف المجاهد.
- بكري عبد الحميد، (2005)، **النبذة في تاريخ توات وأعلامها**، الجزائر، دار الهدى.
- البلبالي محمد عبد الكريم، (2003)، **الجواهر اللئالي من فتاوى الشيخ سيدي عبد الكريم البلبالي**، الجزائر، دار هومه.
- بلعالم محمد باي، **(2015)**، **الرحلة العلية إلى منطقة توات**، الجزائر، المعرفة الدولية.
- سعد الله أبو القاسم، (1992)، **الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945**، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- سيدي عمرعبد العزيز، **(2002)**، **قطف الزهرات من أخبار علماء توات**، الجزائر، دار هومة.
- الطاهري مولاي أحمد، (2012)، **نسيم النفحات من أخبار توات ومن الصالحين والعلماء الثقات**، غرداية، مداد للطباعة.
- غيتاوي مولاي التهامي ، **(2001)**، **الضوء المستنير في معرفة الشيخ سيدي محمد بلكبير**، عين مليلة، المؤسسة الوطنية للإتصال النشر والإشهار.
- مبدوبي محمد، (2014)، **القنديل العالي إضاءة من حياة الشيخ سيدي عبد الكريم البلبالي 1288-1375هـ**، غرداية، دار صبحي للطباعة.

- بابا عبد الله، (2018-2019)، **الحياة الاجتماعية والاقتصادية بتوات إبان الاحتلال الفرنسي 1900-1962 من خلال سجلات المحكمة الشرعية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة أحمد دراية، أدرار، الجزائر.
- بلعروسي عبد الفتاح، (20121-2022)، **المقاومة الثقافية في إقليم توات خلال الفترة الاستعمارية 1900-1962**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكربلقايد، تلمسان، الجزائر.
- عيلة وفاء، (2015-2016)، **دور زوايا توات في الحفاظ على الشخصية الوطنية والطرق الصوفية**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر.
- قصباوي عبد الخالق، (2015-2016)، **أصول الاستنباط الفقهي في النوازل التواتية**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية تخصص فقه وأصول، قسم العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية، أدرار، الجزائر.
- لمحرزي عبد الرحمان، (2019-2020)، **الجهود العلمية والإصلاحية للشيخين مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ومحمد بلكبير في منطقة توات**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية، أدرار، الجزائر.
- بقادرعبد القادر، (2013)، **واقع المخطوط في توات بين الماضي والحاضر**، مجلة الذاكرة، العدد2.
- جعفري مبارك، (2008)، **الزوايا والطرق الصوفية ودورها في مقاومة الاستعمار في منطقة توات**، مجلة النخلة، العدد الرابع والخامس.
- قلوم مكي، (1986)، **الحركة التبشيرية في الجنوب، مجلة آفاق التنمية، جبهة التحرير الوطني، فرع ولاية أدرار**، العدد الأول.
- مقدم كريمة وبابا عبد الله، (2021)، الم**جاعة بتوات إبان الاحتلال الفرنسي 1945-1944على ضوء سجلات الأحباس والتركات وفتاوى الفقهاء**، مجلة عصور الجديدة، العدد11.
- نيكلو عبد القادر، (2007)، **المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي الجزء الثالث**، مجلة النخلة، العدد الثالث.